تائية المنى و السول
في ذكر مولد مولانا الرسول

للعلامة الأديب سيدي الحاج أحمد سكيرج
رحمه ا   و رضي عنه

تحقيق
ذ محمد الراضي كنون الحسني
الإدريسي

تائية المنى و السول
في ذكر مولد مولانا الرسول[1]

متى يا حبيبي لي تجود بعطفة   وتمنحني في الوصل كأس المودة
و تشفي فؤادي من شجون تراكمت   علي بما كابدته في القطيعة
ألم تراني قد كدت أخفى من الجوى   بفرط نحول من معاناة محنتي
أبى الله إلا أن أكون متيما   رهين غرام فيه تزداد حيرتي
شربت كؤوس الحب بعد امتزاجها   بماء حياة الروح بين الأحبة
وإني خلعت في الصبابة و الهوى   عذاري بما ألقاه من فرط لوعتي
وإني قد أسلمت نفسي في الورى   إليك لعل أن تمن بزورة

---

[1] كان العلامة سكيرج رحمه الله حريصا على تعظيم ذكرى المولد النبوي المجيد و إحياء مناسبتها الكريمة. و استيعاب الدروس النافعة منها. و ما أكثر دروسها. و ما أعظم العبر المستخلصة منها. كيف لا و هي بداية مرحلة بشرية سامية. ذات معان و آفاق غير معهودة من قبل، و يكفي أن نَذْكر في هذا الصدد بزوغ فجر أمته التي وصفها الله عز و جل في كتابه العزيز بقوله: كنتم خير أمة أخرجت للناس. تامرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تومنون بالله.
و من خلال هذا المولد الجليل، الذي هو عبارة عن نظم مبارك، حاول المؤلف فيه استنهاض الهمم الفاترة، و استنفار الطاقات في محبة هذا النبي الكريم، الذي جعله الله رحمة للعالمين، ومبشرًا و نذيرا و مفتاحا لسائر النعم و الخيرات، كما دعا من خلاله كافة المومنين إلى التعرض لنفحات هذه الذكرى العزيزة، التي هي ذكرى يمن و بركة و فرج، مع حثهم على الإهتداء بهديه صلى الله عليه و سلم، و اقتفاء خطاه، و السير على منهاجه و طريقه، و الزيادة من محبته، والتعلق به، و الإعتصام بحبله، إلى غير ذلك من مغازي أخرى.
و كثيرا ما كان يقول رحمه الله أن العبرة بهذه الذكرى الغالية تكمن في عموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر و معروف عند الأصوليين، و لا حجة لمنكر هذه الذكرى أو القائل بعدم شرعيتها، بل هو عمل حسن محمود، و فرصة للقاء المسلمين على الخير، و قراءة القرءان وسرد السيرة النبوية العطرة، و سماع القصائد النبوية الجليلة، كالهمزية و البردة و بانت سعاد، إلى غير ذلك من تلاوة قصة المولد، و تشنيف الأسماع بخبر ولادته صلى الله عليه و سلم. و ما زامَنها من أحداث، و مسرات و خوارق عادات، و معجزات و آيات و غيرها.
و خلاصة القول فإن هذا المولد هو نظم جليل، تائي القافية من بحر الطويل، و قد نظمه المؤلف حسبما وقفت عليه فِي ليلة واحدة، و ذلك من ليالي شهر ربيع الأول عام 1326 هـ، و قد سرد هذا النظم المبارك في رحاب الزاوية التجانية الكبرى بمدينة فاس مرات عديدة، لا سيما ما بين عامي 1326_1336 هـ موافق 1908_1918م حيث كان المؤلف مقيما بمدينة فاس، و كان للإحتفال بذكرى المولد النبوي وقتئذ طابع خاص ، إذ هو أضخم احتفال سنوي تعيشه الزاوية المذكورة، حيث تمتلئ عن آخرها بساداتنا المريدين الذين يقصدونها من كل فج عميق، بغية إحياء الليلة المباركة في محفل مهيب، تنشرح فيه النفوس، و تقر فيه الأعين، و توزع فيه كؤوس الشاي والحلوى باختلاف أنواعها، و التمر و الحليب، و الكسكس، و ألوان من المأكولات والفواكه وغيرها. كما تكون الزاوية في تلك الليلة كأنها عروس متألقة في حلل بهية و أنوار متناسقة، وروائح عطرة، و أجواء سعيدة.

ولست للوم العاذلين بسامع   ولو أطنبوا في اللوم لي بنصيحة
وإني طول الدهر لست إلى السوى   أميل و لا أرتاح يوما لسلوة
وإني صبار على حرق الجوى   سوى الهجر لم أقدر عليه بحيلة
لقد رقت العذال طرا لحالتي   على أنني في الحب طابت بليتي
فلست تراني بالشكاية مفصحا   ولكن نحولي قد وشى بمضرتي
فكم بت و الأشجان من بين أضلعي   تؤججها نيران شوقي بزفرتي
وكم بت أرعى السائرات مسامرا   أنظم عقيان الدموع بمقلتي
وأنت الذي بالقهر مني ملكتني   وعذبتني بالتيه بعد المحبة
ومني سلبت النفس بين ذوي الهوى   وألبستني ثوب الجوى بعد صبوتي
وإني لأرضى طول عمري بالذي   فعلت بنفسي بين أهلي وجيرتي
حَنَانَيْكَ فارحم ذلتي و تملقي   إليك و دعني من بعاد و جفوة
ألم تتيقن أنني بك مغرم   وأن غرامي فيك صار جبلتي
ومَا لِي التِفَاتٌ عَنْكَ إلا لمدحتي   لخير الورى المختار بين البرية
محمد المحمود في كل مشهد   ومن هو وافى للورى عين رحمة
هو العلم المرفوع في المجد قدره   ومن أجله الأكوان طرا تبدت
وأول نور أوجد الله نوره   ومنه جميع الكائنات استمدت
ولما أراد الله إيجاد خلقه   على ما قضى سبحانه في المشيئة
دعا قبضة من نوره بمراده   وقال لها كوني محمدَ قبضتي
فكان على وفق المراد مراده   وكان هو المقصود بين الخليقة
فلولاه دام الكون في موطن العما   ولولاه كل العالمين اضمحلت
فكان أبا معنى لآدم جده   وكان له ابنًا ظاهرًا مثل صورة
فآدم يدعوه لدى كل موطن   أبا و هو يدعوه بوصف الأبوة
فهذا لهذا والد لظهوره   وهذا لهذا والد في الحقيقة
ولما بدا من نوره القلم الذي   جرى باسمه في اللوح في أصل نشأة
دعا الله يا مولاي من ذا الذي به   قرنت اسمك المحمود في خير رتبة
فإنا عرفنا الله باسم جلالة   ولم ندر من هذا المحوطُ بعزة
فقيل له عبدي تأدب فإن ذا   حبيبي محمد أجل البرية
فعندئذ لله قد خرَّ ساجدا   وكاد من المولى يذوب بخجلة
وبعد سجود ألهم الله نطقه   فقال على المختار خير تحية
فرد عن المختار ربي سلامه   فأعظم بمن عنه التحية ردت
وما زال نور الهاشمي محمد   محوطا بحفظ الله في كل لحظة
إلى أن برا رب البرية آدما   فألبسه من نوره خير حلة
فمن أجله الأملاك قد سجدت له   وأبلس إبليس بخزي و لعنة
ولما رأى الأملاكَ آدمُ خَلْفَهُ   تشاهد أنوارًا به قد تجلت
دعا ربه المولى عن السبب الذي   له تقف الأملاك من خلف جثتي
فأخبره المولى بنور محمد   ولولاه لم أخلقك يا صنع قدرتي
فألهمه الله السلام على النبي   فرد عليه الله خير التحية

فقال إلاهي انقل بفضلك نوره   إلى جبهتي كيما أفوز ببغيتي
ولما أنال الله آدم قصده   وصار يرى الأملاك في كل وجهة
دعا ربه المنان ينقل نوره   لأصبعه كيما يفوز بنظرة
فأعطاه ما قد رامه فغدا يرى   بأصبعه نور الحبيب لنعمة
وما زال يحظى آدم بمراده   بجاه ابنه المختار في كل دعوة
فتاب عليه حين ناداه باسمه   لدى أكله من شجرة بدسيسة
وزوجه حواء بعد صلاته   عليه و أدى مهرها خير قربة
ولما أتت حوا بشيت مطهرًا   بدا فيه هذا النور باهر نضرة
وقد جاء شيت دون أخت تشرفا   لذا النور كي يمتاز من بين الإخوة
تقيا نقيا طاهرا و مطهرا   محوطا بحفظ الله من كل ريبة
وآباؤه السادات نالوا بحفظه   مراتب فخر في المعالي تبدت
فلم يُرَى منهم واحدٌ متهاونا   وَلا سيم منهم واحد بمعيبة
لقد طهر الله الكريم أصوله   وخصصهم في العالمين برتبة
فما نال ما نالوا سواهم لكونهم   قد امتاز كل منهم بمزية
وذلك أن الله جل ثناؤه   قد اختارهم للنور بين البرية
فأعظم بعبد الله والده الذي   له شهدت أعداؤه بالفضيلة
لقد كان ميمون الطليعة حاملا   لواء كمال قد تحلى بعفة
وأعظم بقدر شيبة الحمد من غدا   محل التقى و الفضل بين الأجلة
رفيع المقام عبد مطلب و من   به قد رعى الرحمان حرمة مكة
رفيع المقام ذي المزايا و ذي العلا   و ذي الهمة العليا بنفس أبية
وأعظم بعالي القدر هاشم الذي   له تنتمي في الخلق كل جميلة
وأعظم بمن قد حل في رتبة الكما   ل عبد مناف ذي المزايا الجليلة
وأعظم بمن نال المحامد في الورى   قصي محل المكرمَات الحميدة
وأعظم بمن حاز المقام الذي سما   كلاب حكيم الحاكمين بن مُرة
وأعظم بذا المولى الذي هو مرة   مغيث الذي ناداه في كل مَرَّة
وأعظم بكعب من غدا في ذوي العلا   يرى دائما ينبوع سر و حكمة
وأعظم بمن قد ساد أهل زمانه   لؤي مجير الناس من كل شدة
وأعظم بعالي القدر غالب الذي   حوى في مرامي المجد أرفع رتبة
وأعظم بفهر سيدًا جل قدره   وحل مقامًا في مكانة رفعة
وأعظم بمن حاز الفضائل مالك   ملاذ الورى عند الأمور الملمة
وأعظم بذاك النضر بدر العلا الذي   به أشرقت للناس كل دُجُنَّة
وأعظم بمغني السائلين كنانة   مزيح العنا عن كل نفس تعنت
وأعظم بشمس في العوالم قد بدت   خزيمة عالي القدر دون تعنت
وأعظم بأصل المجد مدركة الذي   له خضعت هام النفوس النفيسة
وأعظم بإلياس أخي البأس و الندى   وذو الهمة العلياء فوق المجرة
وأعظم بمرفوع الذرى مضر الذي   يزيح عن القصاد كل مضرة
وأعظم ببحر الجود بين ذوي العلا   نزار مزار الفائزين ببغية

وأعظم بمن لا يحصر العد فضله   معد عماد المجد بين البرية
وأعظم بمن قد عظم الله قدره   على غيره عدنان أصل الفضيلة
أولئك قوم طهر الله أصلهم   وطهرهم من كل نقص و ريبة
وأعلى بأعلا المكرمات مقامهم   وتوجهم تاج القبول ببهجة
وصدرهم في المجد فوق مراتب   لها قد عنت أهل النفوس الأبية
وقد لحظوا في كل غيب و مشهد   بملحظ تعظيم لدى كل ملة
وكان عليهم ذلك النور لائحا   يشاهده من نال فتح البصيرة
ولما انتهى النور الكريم لوالد الـــ ـــــــ ـــــــ ـنبي و لم تمسسه أدنى دنية
تزوج بالمولاة آمنة التي   لها من كمال الحسن أبدع صورة
فأكرم بها فالله عظم قدرها   وصيرها أما لأكرم بضعة
وأكرم ببحر الجود وهب فإنه   منيل الهبات ذو المزايا الكثيرة
وأكرم بمسدي الخير عبد منافهم   سمي الرضى جد النبي في المكانة
وأكرم بعالي القدر زهرة من غدا   له في مراقي المجد أرفع رتبة
وأكرم بمن قد صار مجمع عنصري   تناسب أنساب كلاب ابن مرة
كريم السجايا ذو المزايا التي بها   قد امتاز حتى صار ينبوع حكمة
وأكرم بها من زوجة قد تزوجت   بأكرم زوج نال أكمل نعمة
فكانت كشمس في الضحى قد تبرزت   وكان كبدر مشرق كل ظلمة
فزفت إليه في كمال عفافها   وما مثلها عذراء للزوج زُفَّتِ
وكم نسوة قد مِتْنَ من حسد لها   عليه بما اختصت به من مزية
وكُنَّ لعبد الله يطلبن قربه   ويبذلن في لقياه كل نفيسة
وما اختار عذراء سواها لنفسه   بعقد نكاح لا يزن بريبة
ففازت به من بينهن فلم تطق   على كيدها أنثى بشدة غيرة
وفي الليلة الغراء ليلة زفها   توالت بها البشرى بكل مسرة
بها ضجت الأملاك لله بالثنا   من أجل جلالة عليها تجلت
فَضَاءَ فَضَاءُ الكون بالبهجة التي   بها انشرحت كل الصدور السليمة
فكان لحمل النور أعظم موقع   بعالم علوي و سفلي ببهجة
ولما استقر النور في الرحم التي   لها كمل التطهير من كل وصمة
توالت به الأفراح في كل عالم   به بعضها الأملاك للبعض هنت
وقد حفظ المولى مبارك حملها   إلى وضعه بالحفظ كامل خلقة
وما وجدت في حملها وحمًا و لا   عراها به ثقل و لا بعض غمة
وقد بشرت في مدة الحمل بالذي   تقر به العينان منه لفرحة
فقيل لها أنت التي قد حملت بالـــ ـــــــ ـــــــ ـنبي الذي قد فاق كل البرية
إذا ازداد سميه الحبيب محمدا   فإن له في الكون أكمل رفعة
وكم من مرائي قد رأتها لها بها   بشائر قد سرت قلوب الأحبة
وفي ليلة الوضع الشريف تفتحت   جنان من الرضوان و النار سدت
وزهر النجوم قد تدلت و أشرقت   ببهجتها الأرجاء من كل بقعة
وقد حضرت ميلاده خير نسوة   بهن كمال الأنس من بعد وحشة

فقد أخذتها وحشة و هي وحدها   ببيت لها كانت به دون جيرة

فجاءت لها حوا على خرق عادة   مع السيدات العائدات برحمة

فكن لها نعم القوابل جئن من   حظيرة قدس كي يفزن بنظرة

فكانت لهن في الحضور مزية   بها زادهن الله كل مودة

وناهيك باللاتي حضرن لوضعه   ولم يك معها غيرهنَّ بحفلة

فشوهد نور يخرق الأفق مُشرقا   به مشرقا من مغرب كل ظلمة

تراءت قصور قيصر لانتشاره   وقد فاح نشر الطيب من كل وجهة

وقد أبصرت أم النبي سحابة   من النور قد حاطت به ذات وجبة

بها سمعت صوت الملائكة التي   به في زوايا الأرض طافت بسرعة

وردته من بعد اعتراف بعرضه   على الخلق كيما يعرفوه بخلقة

ووافته أملاك تؤدي سلامها   عليه و قد فازوا بأكمل زورة

فقم مظهرا إجلاله بتأدب   وسلم عليه كي تفوز بعطفة

وقل مرحبا بالمصطفى سيد الورى   عليك من المولى أتم التحية

عليك سلام الله يا كامل البها   عليك سلام الله يا خير صفوة

عليك سلام الله يا بهجة العلا   عليك سلام الله يا بحر حكمة

عليك سلام الله يا خير مرسل   من الله مبعوث إلى خير أمة

عليك سلام الله يا علم الهدى   عليك سلام الله يا عين رحمة

لعلك أن تحظى برد سلامه   ورد السلام منه خير ذخيرة

وقد ظهرت في يوم مولده به   أمور بها نفس الشياطين ضلت

فظلت حيارى من عظيم مصابها   بما شاهدوه من كمال النبوة

وإيوان كسرى انشق فانكسرت به   له شوكة لم تنجبر بجبيرة

وقد خمدت نيران فارس آية   له و به غاضت بحيرة ساوة

وخرت به الأصنام و اضطربت لها   قلوب الطغاة قد هَوَوْ في مصيدة

وقد طردت عن مقعد السمع في السما   فمن يستمع يرمى بشهب مصيبة

وذلك من إرهاص سر نبؤة   ومن بعده كم معجزات تبدت

وقد أفصحت كتب سماوية به   فجاء رسولا مثل ما الكتب نصت

وكل نبي قد أتى مخبرًا به   إلى أن أتى من بعدهم بالشريعة

وقد أخذ المولى عليهم مواثقا   متى ما أتاهم ينصروه بحجة

فقالوا بظهر الغيب و الله شاهد   بك الله آمنا بصدق عزيمة

فأنت إله العالمين و إنه   رسولك قد خصصته بالوسيلة

وقرت به في عالم الروح عينهم   ونالوا به قربا محوطا بعصمة

ولولا رسول الله يوم ألست ما اهـــ ــــــــ ـتدت لجواب روح كل الخليقة

فقال بلى في ذلك الوقت مرشدا   لهم فاهتدت للحق من بعد حيرة

فأعلن بالتوحيد لله ربه   فقرت لهم عين بحق أقرت

فكان لهم مفتاح أبواب جوده   فعم وجود الكلِّ منه بنعمة

وَصَارَ حِجَابًا أعْظَمًا لِحَيَاتِهِمْ   وفي الكل من أنوار ذات تجلت

فلولا سناه لاضمحل وجودهم   ولولاه ضلوا في عمى و قطيعة

على الخلق طرا قد تسامى مقامه ... إلى أن غدت من تحته كل رتبة
فرتبته الدنيا إذا ما وصفتها ... بحق على عرش المعالي استقرت
ورتبته العليا على الخلق تختفي ... على أنها في العالمين تبدت
تبدت بحال ليس يدرك وصفه ... وغاية ما يدرى كمال النبوة
فدع عنك أوصاف الألوهية التي ... بها ذات رب العالمين استبدت
وقل في علاه ما تشاء من الثنا ... فإن له في الكون كل فضيلة
وكل صفات المدح منه تفرقت ... وفيه انطوت و الله كل جميلة
هو الكل و الأكوان من بعض نوره ... تكون منه خلقها في الحقيقة
فلا شيء دون الله إلا أمده ... بما يده عمت بجود و خصت
فما مثله في الكون كان و لم يكن ... له كفؤ في خلقة و حقيقة
قضى الله قبل الخلق تخصيصه بما ... به خصه و اختاره بعد نشأة
فلم يك في الإمكان أبدع صورة ... ولا خير منه طبق ما في المشيئة
فَخَصَّصَهُ بين الخلائق ربُّهُ ... بأكمل أخلاق و أحسن صورة
وطهَّرَهُ من كل شيء يشينه ... وكمله حسًا و معنى بصفوة
فما هو بين الخلق إلا محمد ... فطابق الإسم للمسمى بحكمة
فللحق محمود و للخلق كلهم ... وفي يده ألوية الحمد حلت
وأحمدهم لله في كل مشهد ... وأرشدهم للحق في كل وجهة
لقد خصص الرحمان أمته بما ... به غبطتهم في العلا كل أمة
لذلك أحيا الله أم نبيه ... ووالده كي يدخلا حرز ملة
وكانا على منهاج حق تسابقا ... بحسن سريرة و أحسن سيرة
وأحياهما المولى الكريم كرامة ... به لهما بالفضل من بعد بعثة
ولا عجب إذ كان أحياهما له ... فإن به تحيا نفوس البرية